رواية قيمة

في الميزان

بقلم

عباس محمود العقاد

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

فى سنة ٥٦٩ قبل الميلاد ثار « أحمس » القائد المصرى على « وهاب ر ع » فرعون مصر فى ذلك الحين . فاستعان الأول بالجند الوطنيين واستعان الثانى بمرتزقة الاغريق ، فانهزم فرعون وشاركه أحمس فى الملك ثلاث سنوات ، ثم خرج فرعون لقتال شريكه فانهزم ثانية وثالثة . ومات قتيلا بأيدى جنوده الاغريق فى أحدوثة أناس ، وبأيدى الجند الوطنيين فى أحدوثة أناس آخرين

ورواية « قمبيز » التى نظمها الشاعر أحمد شوقى تدور على قصة قديمة خلاصتها أن « قمبيز » خطب ابنة أحمس فدس هذا اليه ابنة « وهاب ر ع » القتيل . فغضب « قمبيز » حين علم بالسر ووثب لغزو مصر واستطلع أسرارها من ضابط يونانى يدعى « فانيس » خان مصر وهرب الى بلاط فارس ، وخيانة فانيس قصة متواترة ، أما سبب الغزو الصحيح فحب

الفتح والغيظ من أحمس لأنه مالأ أعداء الفرس قبل ذلك بسنوات

هذا محور الرواية بالاجمال

ونحن نكتب هذه العجالة لغرضين :

أحدهما تصحيح الشبهات التاريخية التى تمس سمعة مصر القديمة ، وقد تمس كرامة المصريين فى العصر الحديث

وثانيهما إقامة معيار « للشاعرية المبتكرة » يثوب اليه بعض القراء الذين يستخفون بالشعر ويجعلونه من الخسة والهوان بحيث تغنى فيه صناعة اللفظ والطلاء

ولهذا قصرنا الكلام على قيمة الرواية الأدبية والتاريخية ولم نتعرض لقيمتها التمثيلية ، فحسبنا أن نوفق الى اداء ذينك الغرضين

النظم

قمبيز أو « كمبوجة » كما يدعوه الفرس هو فاتح مصر فى القرن السادس قبل الميلاد . ونظن ان كارثة الفرس هى آخر مايحق للشاعر المصرى أن يبدأ باختياره اذا أراد الكتابة فى تاريخ وطنه ، فاذا كتب فيها بعد ان يكون قد استنفد صفحات المجد فى ذلك التاريخ فانما عذره الذى يسوغ له طرق هذا الباب أنه استخرج منه عبرة وفخراً وأحال مافيه من هزيمة الى معنى أشبه بالنصر وأستر للعار ، وذاك مالم يصنعه شوقى مؤلف رواية « قمبيز » التمثيلية كما سيرى القراء

فضل الشاعر الذى ينظم الروايات التمثيلية يبدو فى ثلاثة أشياء : هى (١) حسن النظم والصياغة و (٢) تمحيص حوادث التاريخ و (٣) ابتكار الخيال فيما قصر فيه المؤرخون

وسنبدأ بالكلام عن النظم فى رواية قمبيز لأنه أحرى الاشياء ان يجيده شوقى وأولاه ان يكون معجزته فى الصناعة

الشعرية بعد مراسها نيفاً وأربعين سنة . فلو بلغ شوقى فى صوغ روايته مبلغ الاتقان المعجز لما كان ذلك كثيراً منه بعد طول المراس وكثرة المنظوم ، ولما جاز له ان يُزهى بهذا لأنه قسط ضئيل من النبوغ أو لأنه نبوغ ميسر لكل من يعالجه فى سعة وقت ورفه عيش وفروغ له من كل شاغل سواه ، فهو كمال أدنى الى النقص واحسان أقرب الى الاساءة

هذا اذا بلغ شوقى فى النظم غاية الاتقان ، فكيف ترى يكون لومه وخذلانه اذا هبط عن غاية الاتقان ؟ ثم هبط عن الاتقان المقبول ؟ ثم هبط الى السخف والغثاثة ... فاذا هو يقنع من الاعجاز بالعجز ويرضى من السبق بالتخلف ؟

ان لومه على هذا لعظيم ، وانه لأشد من لوم الفتاة الدميمة تهمل ثيابها طوعا ، ولا زينة لها غير جمال الشباب

ولسنا نحب هنا ان نقيس الشاعر بالمقاييس التى يطول فيها اللجاج ويكثر الخلاف ، كلا ! بل نحن نقيسه بما يتفق عليه النظر ولا يسعه هو أو يسع أحداً من بطانته أن يمارى فيه

فأولى هذه الملاحظات قصر النفس واضطراب القوافى

والاوزان . فان جمال النظم فى الرواية التمثيلية التى تتلى على الاسماع أن تنسجم القافية وألا تفاجىء الآذان بالنقلة البعيدة فى الموقف الواحد دع عنك كلام الممثل الواحد ، ولهذا فضل النظم على النثر ووجب التلحين والغناء فى هذه المنظومات

وأيا كان اعتذار الشاعر فى تغيير الاوزان موقفا بعد موقف فما نخال أحداً يعذره حين يغير الوزن فى البيتين الاثنين يلتقى بهما الممثل والممثلان فى الحوار الواحد أو فى النفس الواحد ... فاذا أحد البيتين من بحر وقافيه واذا البيت الثانى من بحر آخر وقافيه أخرى

نعم الى هذا الدرك من الخلل والاسفاف هبط شوقى فى نظم الرواية

هبط اليه لغير ضرورة ولغير حكمة ، اذ ان جميع مواقف الرواية التى على هذا النمط مما يسهل نظمه فى بحر وقافية ، ولاسيما تلك البحور السهلة الذلول التى اختارها شوقى وخفيت فيها نغمة الوزن حتى لاتحس الابتلمس وطول اصغاء

ولانقول ذلك دون ان نشفعه بدليل محسوس لامراء فيه ،

فهذه أبيات شوقى كما نظمها فى الرواية وهذه هى الابيات بعينها منظومة على نسق واحد ، فأن لم يكن هذا النسق أجمل واسلس وأوفى بالمعنى من شعر شوقى فما هو بدونه فى احدى هذه الصفات

بدأت الرواية بالموقف الآتى بين تاسو ونفريت

تاسو — أحوم حوم صنمى
وحول هـــذى القـــدم

نفريت — حول رجلى أنا

تاسو — اجل حول هذا الـ

شهد والزبد والنمير الصافى

مابك يانفريت ماهذا الاسى

مابال عينيك تريدان البكا

فها هنا بيتان اثنان يقولهما تاسو وحده كل منهما على بحر وقافية غير بحر الثانى وقافيته . ! وهاهما البيتان كما كان ينبغى أن ينظما بغير اخلال أو اختلاف فى اللفظ والمعنى

نفريت . أحول رجلىّ أنا ؟

تاسو . أجل ! أعز من مشى
حول النمير العذب والشـ ـهـــاد والسنـــا

مابك يانفريت ماهذا الاسى مابال عينيك تريدان البكا؟

وهكذا يستوى النسق بغير قصور فى اللفظ ولا فى المعنى

ومثل آخر حين يتحادث تاسو ونتيتاس فيقول تاسو :

وما ذنبى ؟

فتجيبه نتيتاس .

لقد أحسنت لكن لى أنا الذنب
أنا أحببت عابثاً سادر القلب جافياً
يعشق الجاه والغنى لايحب الغوانيا

فقد أجابت نتيتاس فى نفس واحد وجواب واحد بوزنين وقافيتين ، وكان فى وسعها أن تجيب بما يأتى فلا تعدو ماأراده شوقى :

. . . لقد أحسنت لى وحدى أنا الذنب
وفيت لعابث يلهو ولنت ، وقلبه صلب
وما يصبو لغانية ولكن بالغنى صب

ومثل ثالث حين تدعو القهرمانة الجوارى الى الرقص والتغنى بنشيد فرعون :

قمن الى اللهو ياعذارى وخذن صنجا وخذن دفا
واهتفن بالشعر والأغانى واقطعن ليل الشباب قصفا
وأنشدن مع القوم نشيد الملك العالى

بحران وقافيتان فى كلام ممثلة . . . وكان من أيسر الأمور أن تلقيه كله من بحر وقافية فتقول :

قمن الى اللهو ياعذارى وخذن صنجا وخذن دفا
واهتفن بالشعر والاغانى واقطعن ليل الشباب قصفا
وطفن فى الجمع منشدات نشيد فرعون . عاش ألفا

فان لم يكن فى هذا زيادة سائغة بل واجبة فما فيه اخلال

ومثل آخر حين يخاطب قمبيز فرعون فيقول له .

رويدك أنت يافرعون انى اذا حطمت مصر فمن يقيها ؟
أليست فارس والارض تحتى وأمرى فى الجنوب وفى الشمال
وقد غطت فضاء الارض خيلى وهبت فى السهول وفى الجبال

فلو قال قمبيز فى البيت الاول .

رويدك أنت يافرعون انى اذا حطمت مصر ، فمن أبالى ؟

لانتظمت القافية ولم يتغير المعنى

ومثل آخر حين يأتمر قمبيز ورجاله بقتل العجل فيقول أحدهم « احرقه » . . . . فيغضب قمبيز لان العجل يدنس النار وهى معبودة عند الفرس ، ويكون حوار على هذا المنوال :

قمبيز : ماذا يقول الناس عنا غداً القوا الى النيران بالفار

قد دنسوها وهى معبودهم من جثة العجل باقذار

قائد : مولاى ماذاك فأر بل ألف فار وفار .

آخر : ياسيد الارض أبشر رأى الوزير أصابا

غداً يقولون بمنفيس تغدت النار بآبيس

وندع هنا الخطأ التاريخى فى هذا الحوار الى مكانه ونكتفى بأن نجعل المتكلم الاخير يقول كلامه من بحر واحد وقافية واحدة ، فانه كان يستطيع أن يقول ،

ياسيد الارض أبشر رأى الوزير مصيب

غداً يقال تغـــدى بعجل مصر اللهيب

تطهر العجل فيه والنار طهر عجيب

فيزيد المعنى ويكمل . . .

فأما إن كان شوقى حريصاً على سجعة منفيس وآبيس فدونه اربع سجعات بدلا من سجعتين :

مولاى أبشر ! ، لك تقديسى عبدك لم ينطق بتدليس
غداً يقولون بمنفيس تغدت النـــار بآبيس

ومثل آخر حين يجن قمبيز ويتخيل الاشباح والرؤى فيقول

ماذا بيـــا ماذا بيا هـــذا شقبق برديا
هـــذا شقيق برديا وخنجرى فى صدره
جئت أخى تجزى أخاك عن قبيح غدره

فماذا يجرى لو قال قمبيز بدلا من هذا

ماذا بيـــا ماذا بيا هذا شـــقبق برديا
وما أرى فى صدره أخنجرى ؟ ياويحيا ؟
جئت اخى تجزى على الغدر أخاك الجانيا

ألا يكون كلامه خيراً وأوفق لتردد المخبولين ، وأسلس من ذلك التخليط ؟

* * *

وحسبنا هذا فانما نريد التمثيل ولا نريد الاستقصاء ولا

أن ننوب عن شوقى فى ترقيع نظمه الذى لا ينفعه الترقيع !

* * *

تلك ملاحظة أولى

والملاحظة الثانية على اضطراب النظم حيرته فى تقليب الاسماء كلما أعياه الوزن واستعصى عليه سبك الاسم الاصيل فيه ، فمانيس تارة فانيس وتارة أخرى فنيس ومرة ثالثة فانس وهكذا كيفما اجتمعت الفاء والنون والسين ، وبسامتيك تارة « ابسما » وتارة أخرى بساما ومرة ثالثة ابساماتيك .. الى أشباه ذلك من التلفيقات والتوفيقات ، وقل مثل هذا فى آبيس وأبيس وأمازس وآمزس وأمازيس ، وقل مثله فى صاوسايس وسايبس ، وتتاوتى ، ونفرت ونفريت ، ونيتتاس ونتيت ونتاتس ... وقل مثله فى سائر ما فى الرواية من أسماء

وعلى ذكر الاسماء نلاحظ هنا — وان كان هذا أدخل فى باب التاريخ — ان الناظم اختار الاسماء اليونانية وترك المصرية مع أنه قد زعم أو زعم له انصاره انه ما ألف الرواية الا لانصاف الوطنية المصرية من الجالية اليونانية التى

تغلغلت يومئذ فى كل شىء وجارت على مناصب الدولة ومرافق الأمة . فشوقى يترك اسم هانى المصرى ويسميه «ابيس» كما سماه اليونان . ويترك اسم حفرع التوراتى واسم « وهاب رع » المصرى ليسمى ذلك الفرعون باسم « ابرياس » اليونانى ! ثم هو يترك اسم احمس المصرى الذى يعنى الهلال فى لغتهم ليأخذ باسم أمازيس وتشكيلاته الاخرى . . ! ويسمى قمبيز كما سماه الاغريق وكان فى وسعه أن يسميه كما سماه الفرس « كمبوجة » أو المصريون « كمباثت » ... وليس فعله هذا من انصاف الوطنية المصرية فى شىء ! بل هو تغليب حديث لليونانية فوق ذلك التغليب القديم

* * *

أما الملاحظة الثالثة على النظم فهى كثرة التجوز القبيح فى الفصل والوصل والهمز والتخفيف والمقصور والممدود ، فيجرو ويهزا ويقرا ويطا وشىء وتلجنى ويختبا — تجىء عنده فى مواضع يجرؤ ويهزأ ويطأ وشىء وتلجئنى ويختبأ ، والسما والفضا والبها والما فى مواضع السماء والفضاء والبهاء والماء ، وافاعى

والشق فى موضع افاعىّ والشقىّ ، وأمثال ذلك كثير جداً على لسان جميع أبطال الرواية

* * *

والملاحظة الرابعة أن الرواية لم تخل من مخالفة للنحو والصرف فى القواعد المنصوص عليها ، ففيها يقول الناظم :

ويرجع الناس لها إلا امرؤ لا يشعر

والصواب « الا امرأ » لأن المستثنى منه مذكور والفعل غير منفى

ويقول فى الحوار بين فرعون ونتيتاس :

فرعون : بخ بخ بنت أخى

نتيتاس : انت يا قاتل ـ عمى .

توهم صاحبنا أن كل منادى ينصب ، فنصب « قاتل » ولا وجه لنصبه . انما يبنى على ما يرفع به لأنه نكرة مقصودة

ويقول « قزح » ولا تذكر قزح الا مع قوس

ويقول :

وترى النيل دما والا رض جردا محولة

والموصوف هنا معروف فلا وجه لدخول التاء . وفى

الاساس « أصابهم محل ومحول بضم الميم . وقد امحلت الارض وأمحل أهلها ، وبلد وزمان ماحل وممحل ، وعن أبي دريد : أمحل الله الارض . وأرض محل وأرضون محل ومحول بضم الميم « للجمع » وأمحال » . . . وفي المحيط : « مكان محل وأرض محل ومحلة ومحول وممحلة وممحل وممحال » وليس بين هذه الصيغ كلها صيغة فعولة

وقال بلسان نتيتاس وهي تخاطب فمبيز ليمنع فانيس الكلام علمت حقده على قومي فلا تدعه ينفث فيّ سم حقده

وجزم « ينفث » خطأ متفق عليه ، لأننا لانستطيع ان نقول « ان لاتدعه ينفثْ » اذ المعنى نقيض ذلك وهو « إن تدعه ينفث » وانما يستقيم المعنى اذ نقول « لاتدعه فهو ينفث سم حقده » أو « لاتدعه والا فهو ينفث سم حقده » فيتعين رفع ينفث على هذا التقدير الذي لاتقدير سواه

ولم تخل الرواية كذلك من السرقة الظاهرة في النظم كقول المؤلف

كذبت على يابنة ابرياس حذار حذار من بطشي وفتكي

وهو مأخوذ بحرفه من قول الشاعر يعنى الدنيا

تقول لكل مستمع اليها حذار حذار من بطشى وفتكى

أو كقوله . « تعيش مصر وتبقى » وهى كلمات البهاء زهير مأخوذة من بيته :

تعيش أنت وتبقى أنا الذى مت عشقاً

* * *

أضف الى هذا تبذل اللفظ فى قوله بلسان قمبز

لست بالعجل أبالى وعلى النار أبول

وقوله بلسان أحد المصريين :

ليته بال على نيرانكم بولة تطفى لظاها واللهب

فهذا تبذل مرذول كان لشوقى الف مندوحة عنه ، ولم يكن له موجب من حكاية التاريخ ولا من الذوق ولا من وقع التمثيل !!

وتلك ملاحظات سريعة على النظم ، وأما الملاحظات على التاريخ والخيال فهى أكثر وأعجب

موكب العجل المقدس

تصوير بردجمان

obeikandl.com

التاريخ

للشاعر ان يسد نقص التاريخ فى حيث سكت ، وله ان يفتنّ فى تصوير حقائق التاريخ ليبعثها جديدة ويلبسها ثوب الحياة المشهودة ، ولهذا تسمى الرواية تاريخية ويراد النظم فى الموضوعات المهجورة . أما أن يتناول الشاعر الحقائق ليمسخها ويناقضها فذلك مالايجوز له بحال ولا يغنى فيه عذر ، ألا أن تكون رواية التاريخ معناها أن نشوهه ونكذب عليه ، وذلك معنى من الرواية التاريخية لايخطر لاحد على بال

نعم لايخطر لاحد على بال الا شوقى وأمثاله ، فان قارىء رواية قمبيز ليرى كانما هذا الشاعر لم ينظمها إلا ليمسخ تلك الفترة من تاريخ مصر ، فيمحو منها كل ماهو حقيق بالذكر ويذكر فيها كل خطأ ولغو وفضول ، وهذا بيان وجيز لبعض تلك الاخطاء .

شخصية قمبيز

فاسم الرواية « قمبيز » كما علم القراء ، ومن حق هذه التسمية على المؤلف الصحة والابداع فى وصف ذلك الرجل الذى سميت باسمه الرواية . فان لم تكن صحة وابداع فلا أقل من اجتناب الكذب الصراح فى حيث نطقت الاخبار بغير تلبيس ولا ابهام .

ولقد نطقت الاخبار بأن ملوك الفرس كانوا يشربون الخمر ويتشاورون على أمور الدولة فى مجالس الشراب ، ووصفت الأخبار قمبيز خاصة بانه كان سكيراً مدمنا مايكاد يفيق ، حتى شاع عنه ذلك وتقوّل الفرس أن رعشة الادمان أصابته فى يديه فما يقوى على تسديد سهم الى غرض ، ومن أجل هذا تناول قوسه وسدد سهمه الى قلب ابن « بركساسب » ساقيه الفتى الجميل فارداه كما روى هيرودوت ، ليرى الناس أن الخمر لم ترعش يديه ولم تزغ عينيه . . . وهذا هو قمبيز فى التاريخ فانظر كيف وصفه شوقى على لسان أحد الفارسيين

لـــكن له شغل عن الخـ مر بطول غزوته ! !

* * *

ومعروف متواتر أن قمبيز قد مثل بجثة الملك احمس وأمر باحراقها فى النار ، ولاحظ هيرودوت مافى ذلك من مخالفة الشعائر الفارسية عندهم لاعتقادهم نجاسة الجثة وقداسة النار ، فعجيب من قمبيز هذا أن يغضب — كما جعله شوقى يغضب — حين اقترح عليه أحد رجاله أن يحرق الثور هابى أو آبيس !! مع أن الثور من المخلوقات المباركة فى شريعة الفرس : خلقه أو رمزه اله النور فى غفلة اهرمان اله الظلام

ولقد عرف عن الفرس انهم كانوا يحرقون الاحياء من الاسرى والمجرمين وانهم هموا باحراق قارون حين اسره كورش ابو قمبيز ، فلا الشعائر اذن تخالف باحراق هابى ولا الغضب من ذلك معقول

وقال شوقى على لسان قمبيز وهو يخاطب العجل

وهـــذا خنجرى الماضى فخـــذه بين قرنيكا

بين قرنيكا ؟ ما كان ينقص صاحبنا الا أن يجعل قمبيز ينطح العجل برأسه ويفعل مايفعله كل ذى قرنين

قتل هابى

ماجنى على شوقى هذه الجناية التاريخية إلا القافية لعنها الله !!

والا فماذا كان يجرى لو أنه قال « خذ خنجرى ولم يذكر الموضع الذى طعن فيه العجل ؟؟ ان ذكر القرنين هنا هو الذى شط بشوقى عن الحقيقة التاريخيه ! ! فان المؤرخين ذكروا ان الطعنة كانت فى الفخذ وزعم الكهان ان قمبيز مات بطعنة فى فخذه على سبيل القصاص الالهى منه لجرحه العجل « هابى » ، واختلفوا فى الطعنة هل جاءت عن عمد أو على غير عمد ولكنهم لم يذكروا قط أنه طعن بين قرنيه

ولو كان لشوقى بصيرة مؤرخ وخيال شاعر لعرف ان حكاية قتل العجل بتلك الطعنة خرافة لا تثبت على التمحيص وان وردت بها بعض الروايات ، لان طعنة فى الفخذ لا تقتل عجلا قوياً ولا غير قوى ، ولم يكن قمبيز جزاراً حتى يجهد لقتل فريسته فلا يدعها الا وهو قاتلها أو مصميها . فنحن نعلم ما يحتاج اليه الجزارون من الجهد لقتل الثيران ، وليس بالمعقول أن قمبيز قد رضى لنفسه هذه الجزارة واستعد للذبح هذا الاستعداد ، فانما كان يعنيه ان يرى الكهان جهلهم وضلالتهم اذ يعبدون مخلوقا من لحم ودم يصيبه عبده اذا شاء

وينفذ فيه السلاح . وقد ضحك من الكهان حين أسال دم العجل وخاطبهم فى هذا المعنى كما جاء فى رواية هيرودوت ، فهو قد عنى ذلك ولم يعن أن يحترف الجزارة اكراما لهاى !! على اننا لو فرضنا ان قمبيز طعن العجل بين قرنيه فليس الا خيال كخيال شوقى العقيم يتصور أن الطعنة فى ذلك الموضع الصلب تميت الثيران وهى تضرب مرات بالفؤس الضخام فلا تموت ولا يستغنى الجزار بعد ذلك عن الاجهاز عليها بالسكين . ولسنا نكتفى بالفرض هنا بل نذكر الفرض المعقول ثم نؤيده بالاسانيد

فى المتحف المصرى باللوفر الواح تسجل موت العجول المقدسة عثر بها ماريت باشا حين كشف مدافنها فى البدرشين ، ومنها لوحان أحدهما عن العجل الذى مات فى أيام قمبيز وولد على ما يظهر فى السنة الخامسة والعشرين من حكم أحمس ، والآخر عن العجل الذى مات فى السنة الرابعة لحكم دارا . . . ويرى مسيودى روجيه صاحب كتاب المأثورات المصرية ، ان هذا هو العجل الذى طعنه

قمبيز فى ثورة غضبه . . . وانه على هـذا الاعتبار يكون قد عاش بعد طعنته تلك خمس سنوات على التقريب ،

وهذا ترجيح يزكيه العقل وتمحيص الاخبار وسجلات الآثار ، ولكننا لانحب أن نأخذ الشاعر بالترجيحات ولا نزيد على ان نسأله : من أين جاء بالطعنة بين القرنين ؟ أتراه جاء بها ليبر بعهد قطعه على نفسه لينقضن التاريخ حيث استطاع نقضه بغير سبب ولاجدوى ؟ أما كان فى وسع الشاعر أن يرجح حياة هابى وموت قمبيز بعد العدوان عليه فيكون هذا أمضى مع سياقه وأدل على العبرة التى أطال فى بيانها وأبلغ فى اظهار النقمة الالهية التى تحدث بها كهان المصريين ؟ !

بردية

وزعم شوقى ان قمبيز قتل أخاه « بردية » فى ساحة القصر على مشهد من حراسه وحرمه ، أما الثابت الذى لااختلاف فيه فهو انه قتله خفية ولم يعلم بموته أحد من القصر ولا من الشعب ، حتى ان « جوماتا » الثائر الذى كان يشبه بردية كل الشبه استطاع ان يقنع الشعب ويقنع نساء القصر بانه هو بردية ابن

كورش وشقيق قمبيز ، فصدقه الجميع ودانت له البلاد وطارت الرسل الى قمبيز تنبئه بأن أخاه قد تمرد عليه وجمع اقطار الدولة حوله ، فشك هذا بادىء الأمر فى اخلاص « بركساسب » الذى عهد اليه فى قتل أخيه ، ثم تبين له خطؤه فاذاع الحقيقة بين رجاله وحامت الريب حول الدعى الثائر ، وتلك رواية لم يشذ عنها أحد من المؤرخين

وكذلك لم يشذ أحد من المؤرخين عن الجزم بموت قمبيز فى غير مصر وانه قضى عليه بعد ما تجاوز أرضها الى البلاد السورية فى طريقه الى فارس ، وانما شذ شوقى وحده لأنه أمين على يمينه ليفسدن التاريخ وليطعننه بين قرنيه !

أخت قمبيز

ولقد غلط شوقى فى أخت قمبيز كما غلط فى أخيه . فسمى الأخت التى قتلها « أتوسة » وأتوسة لم تمت فى حياة قمبيز بل عاشت حتى تزوجت « دارا » وولدت منه « خشا يارش » الأول وزينت له أن يوليه العهـــد بدل ابنه الاكبر لأنه من سلالة كورش العظيم . أما التى قتلها قمبيز فهى أخت أخرى لامته على فتكه باقربائه فرفسها برجله فماتت فى أثر هـــذه

الرفسة لأنها كانت حاملا فيما زعم رواة الخبر . ولكن صاحبنا شوقيا زنقته شهوة الخطأ فسمى الاخت باسمها وأملى على ضمير قمبيز الثائر ان يقول :

أتوسة أختى ألا تصفحين ؟ أتوسة زوجى ألا تغفرين ؟

فشفى نفسه بذلك الغلط المستفيض فى أمر قمبيز وأخى قمبيز وأخت قمبيز ! !

وقد فاته فى هذا الحادث أن ينبه الى بناء قمبيز باخواته وما فى ذلك من الغرابة والاجتراء على حرمات دينه وعادات بلاده ، ثم ما فيه من دلائل الشذوذ الذى يتمم العلم باخلاق بطله ، ولو أنه نبه اليه لعلم نظارته ان ذلك المخبول لم يكن ليحفل النار وما أحرقت من « هابى » أو غير « هابى » . . ولكن شوقيا ملهم فى الغلط فلا يحذف اللغو ولا يثبت ما يفيد

* * *

ذلك مجمل عن قمبيز بطل الرواية الاكبر ، أما أبطالها الآخرون فلكل منهم نصيب على قدره من الاخطاء والاكاذيب فهذا بسامانيك يقتله شوقى بعد غزوة قمبيز للنوبة

وهو قد قتل قبل تلك الغزوة ، وذلك أحمس ينقل خبر موته الى قمبيز وهو فى فارس يتأهب لغزو الديار المصرية . . اما الرواية التى ذكرها هيرودوت وجاراه عليها المؤرخون فهى أن قمبيز لم يعلم بموته الا بعد اشرافه على الفرمة ! !

فانيس اليونانى

وذلك فانيس اليونانى يجعله شوقى

امير الجيش فى منف واسوان وسايس

وما كان للجيش المصرى أمير واحد فى جميع هذه البلاد ، وما كان فانيس الا ضابطا من الضباط لم يبلغ مرتبة الامارة والمؤلف يميته وهو يقول

قد خنت مصر وخنت سادات بها لكننى ما خنت قط بلادى

وهذا كذب ، لان فانيس خان جند اليونان حين خان مصر ولهذا أبغضوه ووغرت صدورهم عليه

ثم هو يميته جاهلا بمصير أولاده فيلقى على لسانه وهو يلفظ الروح هذا البيت .

يونان تغفر لى وآلهتى بها سهرت عيونهم على اولادى

ثم يجعـــل مصريا يقول

فانيس لاعـــلم له بما جرى
قـــد قتلوا أولاده وما درى

كذلك يزعم شوقى عدو التاريخ . أما الذى رواه هيرودوت — وهو وفانيس من بلدة واحدة فى آسيا الصغرى — فيناقض ذلك كل المناقضة ، لأنه روى أن الجنود قتلت اولاد فانيس أمام عينيه ومزجت دماءهم بالخمر وشربتها فى وسط الميدان ، ولو كان الجنود الوطنيون هم أصحاب هذه الفعلة لجاز أن يقول قائل ان شوقيا تعمد الاغضاء عن الحقيقة ليرحض اللوثة عن سمعة بلده وتاريخه ، ولكن هيرودوت نسب الفعلة الى الجنود الاجنبية المرتزقة ولم ينسبها الى المصريين

الضحايا البشرية

والتاريخ يروى عن اليونان نظائر لهذه الفعلة فى حروبهم مع الاجانب ، فقد ذبحوا ثلاثة من أسرى الفرس قبل وقعة سلاميس وصنعوا بهم مثل ما صنع جنودهم المرتزقة بأبناء فانيس ، فكان أولى بشوقى أن يذكر الحقيقة ولا يناقضها لأنه ينصف بذلك الوطنية المصرية من طغيان الدخيل . بل كان أولى به

ان ينزه سمعة المصريين عن عار الضحايا البشرية التى نزهتهم عنها الحقيقة

فليس فى الآثار المصرية أشارة واحدة الى التضحية البشرية فى شعائر مصر القديمة ، وكل ماقيل عن التضحية بالبنات فى موسم الفيضان أساطير لاسند لها من الآثار ولا من أقوال المؤرخين الاقدمين . فان أول من أشار الى هذه الاسطورة هو « المقريزى » الذى تلقفها من الافواه فى مصر ولم يرجع بها الى سند صحيح ، وأين عهد المقريزى من عهد قدماء المصريين؟ لابل قد نفى « هيرودوت » عن المصريين وصمة التضحية البشرية نفيا جازما خلال سرده لحكاية هرقل وما تقوّله عنها الاغريق الاولون

ويرحض هذه الوصمة عنهم انهم كانوا يدفنون مع كبار الموتى تماثيل يرمزون بها الى الخدم والاتباع تحرجا من قتل الخدم والاتباع على أجداث الملوك والامراء كما كان يفعل غيرهم من أمم العصور الغابرة . فأجدر بالمصرى ان يفخر بهذه الحضارة العالية والايتطوع — على الاقل — لتلويث تاريخه بتهمة لم يقم عليها دليل ولا شبه دليل ! لكن شوقيا موكل بقلب الحقائق وتشويه

المفاخر من حيث يزعم أنه يشيد بالمفاخر ويدحض الاباطيل ، ولهذا أجرى على لسان نتيتاس ذكر الخرافة المكذوبة عن عروس النيل وجعلها تقول .

كل عام صبية من بنات الشـ ـعب تختار للفداء فتفدى
تنزل النيل غير عائفة ما فيه للموت من حياض وورد
سمحت بالحياة فى غير سأم وسخت بالشباب فى غير زهد

وما كان المصريون يلقون فى نهرهم الا عروسا من الطين ولا كانوا يسمونها عروس النيل الا لأنهم كانوا يحسبون النيل زوجا لارض مصر يزورها العام بعد العام ، فهم يرمزون للارض لها بدمية من طينها يحتفلون بزفافها اليه ، وهذه هى القصة لاقسوة فيها ولا وحشية ولا شناعة ، فانظر الى الصديق الجاهل كيف يصنع بمن يواليه . . ان صح انه يواليه

شجاعة المصريين

وانساق شوقى مغمض العينين مع مؤرخى الاغريق فافترى على شجاعة المصريين فى ذلك العصر افتراء تنفيه جميع

الوقائع التى سجلها أولئك المؤرخون . وفات خياله المظلم الكليل أن يدرك موضع الهوى والغرض من نفوس اليونان الأقدمين اذ يتكلمون عن الجنود الوطنيين ، فقد كان ضلعهم ظاهراً مع الملوك الفراعنة ، المكروهين الذين كانوا يحذرون التعويل على الجنود الوطنية فيكثرون من استخدام الجنود اليونانية ، وكان أولئك الفراعنة يحابون اليونان ويتبرعون بالمال الكثير لتعمير هياكلهم فى بلادهم وإقامة الهياكل لهم فى جوار المعابد المصرية . وكان أبناء البلاد يمقتون فراعنتهم من جراء هذا ويتربصون بهم وبالجنود الدخيلة الدوائر وينعتون هؤلاء باقبح النعوت ويحرمون الأكل من أيديهم والتنزل الى معاشرتهم ، ويقدحون فى شجاعتهم وأمانتهم بكل لسان

فماذا كان ينتظر شوقى من اليونان أن يقولوا عن أنفسهم وعن أبناء البلاد الناقمين عليهم ؟ أكان ينتظر منهم أن يتهموا أبناء وطنهم بالفضول والتطفل ويعترفوا للمصريين بشجاعة تغنيهم عن الجندى الدخيل ؟ أكان ينتظر منهم أن يكرهوا « وهاب رع » وأحمس ومن سبقهما كما كان المصريون

يكرهونهم ويتبرمون بحكمهم ؟ وإذا لم يفعل اليونان ذلك فماذا تراهم يقولون الا أن المصريين ضعاف وانهم هم حماة الديار ؟ وان الفراعنة على صواب حين يميزون بين هؤلاء وهؤلاء ؟

على أن استخدام المرتزقة خطة لم تنفرد بها مصر أيام الغزوة الفارسية ، لانهم كانوا يُستخدمون فى جيش فارس وساموس فى هذه الفترة بعينها ، فليس من الانصاف أن يُتخذ وجودهم فى الجيش المصرى برهانا على نقص فى كفاءة المصريين للجندية والقتال

فكل ما افتراه مؤرخو اليونان على شجاعة المصريين فى ذلك العهد إنما كان حديث موتور ودفاع دخيل ممقوت ، وما كان هذا ليخفى على أحد له بصيرة وفطنة وله الماما بمواقع الاغراض والدعايات . فما كان يجمل بمؤرخ باحث ـ ولا بمصرى على الخصوص ـ أن يتخذ شهادة الكتاب اليونان دليلا على جبن آبائه الغابرين ، ولو صفر التاريخ من الأدلة النافية لهذه الفرية . لكان المصرى شبه عذر فى الاصغاء اليها والاهتمام بشأنها .

أما والتاريخ حافل بالدلائل النافية لها فلن ينساق مع أكاذيب اليونان الأقدمين الا رجل تعوزه الغيرة أو يجنح به الغرض إلى تصديق تلك الأكاذيب ، وقد يكون شوقى صاحب غرض فى هذا ، لأن فيه عرقا يمت به إلى اليونان كما يقول

وإلى القراء بعض الدلائل التى حفل بها التاريخ حتى فى رواية أولئك المؤرخين المغرضين

فمنها أن الفرقة المصرية هزمت الفرق المرتزقة فى كل مرة اجتمعت فيها تلك الفرقة إلى فرد راية ، فلما خطر لـ « وهاب رع » أن يشد أزر « ذكران » الزعيم اللوبى فى حربه للمستعمرة الاغريقية ببرقة رأى من الحكمة ألا يرسل فى هذه الغزوة جنوده المرتزقة مخافة أن يتمردوا فلا تطيب نفوسهم لحرب أبناء وطنهم ، وعلم أن الفرقة المصرية تبغض الاغريق وتصدق فى قتالهم فأرسلها إلى الحدود ، ولكن حسابه ما لبث أن التوى عليه فكرّت الفرقة المصرية راجعة الى حربه حين أحست اجتماع الكلمة ووحدة

وهاب ر ع

obeikandl.com

وخرج بهم لقتال الثائرين فهزمه هؤلاء شر هزيمة ورفعوا قائدهم أحمس الى العرش شريكا لذلك الفرعون . ولولا أن علو أحمس على زملائه قد أثار فى نفوسهم حسد الند للند لخاف اجتماع كلمتهم عليه لما عدل بعد ذلك عن تأييد الجنود الوطنية الى مشايعة الأجانب والمرتزقين

هذا ما حدث فى الوقعة الأولى بين المصريين والاغريق . فلما التقى الفريقان بعد ذلك مرتين كان الغلب الحاسم فى المرتين للمصريين

إلا أن التعصب الأعمى يسول للمؤرخين المغرضين أن يحاولوا اقناعنا بالنقيضين للاشادة ببسالة اليونان والتشهير بضعف مراس المصريين . فلما أرسل « وهاب رع » معظم جيشه الوطنى الى قتال الاغريق ببرقة قال أولئك المؤرخون أن الاغريق أبادوه إلا قليلا لا يحسب لها حساب ، ومن ثم نعلم أن الجيش الوطنى قد منى بخسارة لا تعوض وآب أضعف وأخوف مما ذهب ، لكنهم يذكرون الحرب بين المرتزقة والجند الوطنى بعد وقعة برقة فيدعون أن الوطنيين انما تغلبوا

على خصومهم بكثرة العدد لا باليأس والشجاعة . . . فهنا هم كثيرون وهناك هم فلول !! وليس هذا الادعاء المتناقض الا من تعصب اليونان لليونان ، وكراهة المنافس للمنافس ، وليس ترديده فى العصور المتأخرة الا تعصبا جديدا من الاوروبيين المحدثين لأولئك الاوربيين الغابرين

وأدل مما تقدم على منعة مصر وهيبة جيشها أن كورش مؤسس دولة الفرس وفاتح الامصار شرقا وغربا قد تهيب أن يقدم على غزوها فتركها وشأنها كما قال مسيو « جستاف جكفيه فى كتابه « تاريخ الحضارة المصرية » ... مع أن كورش كان يعلم اشتراكها فى الحلف الذى تألب عليه من البابليين والليديين والسبرطيين والمصريين ، فحارب بابل وليدية وسوف فى محاربة مصر الى أن مات

ومن الدلائل على كذب الاقاويل عن هذه الفترة أن قمبيز — مع تهجمه وفتوته — لم يجسر على غزو مصر إلا بعد أن استوثق من خيانة فانيس اليونانى واطلع منه على اسرار الهجوم وفوض اليه رشوة البدو الضاربين

صورة لجندى مصرى

فى صحراء سيناء . ثم لم يكفه هذا حتى ألب الاسيويين على المصريين وأعدّلهم ستة أضاف قوتهم من الفرسان وجيش مشاة يفوق جيشهم بعدد غير قليل . واسلحة لاعهد لهم بها فى ذلك الزمان . واسطولا لبوليكرات الطاغية الساموسى مال الى فارس بعد أن كان فى حلف المصريين

ومن الحيل التى لجأ اليها قمبيز للغلبة على المصريين بارشاد فانيس اليونانى انه رفع الحيوانات الصغيرة التى يقدسونها ويحرمون ايذاءها على دروع جنوده فتورع المصريون ان يقذفوها بسهامهم وآثروا الهزيمة على الجحود وعصيان الدين ، ولا ندرى لماذا أغفل شوقى هذه القصة ولم يشر اليها بحرف وهى كما يرى القارىء مرتع للشعر ومسرح للخيال ، وفيها ما يخفف عار الهزيمة فيجعلها ضربا من التقوى الدينية ويمحو عنها الجبن وفتور الوطنية . ثم هى ليست حقيرة السند مخترعة من الأساطير . لأن بوليمينس أثبتها فى كتاب التعبئة والحيل الحربية الذى ألفه للعاهل الفيلسوف « ماركس أورليوس » فان صح ان شوقيا تحرى فترة الفتح الفارسى ليمحو عاره

صورة أخرى لجندى مصرى

فهذه القصة ترضى خيال الشاعر وبحث المؤرخ وعبرة الحكيم ، وهى وما سبقها من الدلائل كفيلة بجلاء الوصمة والباس الخذلان لباس الشرف والعزة . وهى كذلك أجدى وأبلغ فى الاقناع من تلك الجعجعة الخاوية التى ملأ بها أفواه المصريين ولم تكن لتدل إلا على السخف والغباء.

ولقد غلبت مصر وملكها الفرس وما انكسرت قلوب أهلها ولا خنعت رقابهم لنير الفاتح القوى المعتز ببأسه وسلطانه ، فما برحوا يتحينون الفرص ويثبون على غالبيهم مرة بعد مرة حتى قلق دارا الأول وحضر الى مصر وقتل « اريانده » والى الفرس الذى كان يتغطرس على المصريين ويستفزهم الى الغضب والثورة . وبالغ فى تمليق الشعب والكهان حتى بنى معبداً لآمون واشترك فى موكب الحزن على « هابى » واكتتب بما يعدل اثنين أو ثلاثة وعشرين الف جنيه من نقود هـــذه الايام ، مكافأة لمن يعثر بعجل جديد تجتمع فيه الشروط المفروضة فى أسفار الكهان

وظهر شمم الكهان المصريين على أتمه يوم اقترح « دارا »

عليهم أن يقيموا تمثاله الى جانب تمثال « رعمسو الثانى » فى معبد فتاح ، فلم يبال أحدهم أن يجبهه بتفضيل رعمسو عليه وأن يقول له فى غير مواربة ولا دهان : انك لم تفتح فتوح ذلك الفرعون العظيم ولم تبل مثل بلائه ، فتلقى الجواب كاظماً وقال فى حلم وأناة : « سأفعل كما فعل اذا عشت كما عاش » وعدل عن إقامة التمثال اذعانا لكبرياء رعاياه المغلوبين

ثم استرجعت مصر استقلالها وكافحت حوله كفاح المستميت ، ولا محل هنا لتفصيل الوقائع التالية لأنها خارجة عما نحن فيه

فالحوادث التى انتقلت الينا من مؤرخى اليونان أنفسهم تنفى ماتخلل رواياتهم من سوء الشهادة للشجاعة المصرية وسائر الخلائق الكريمة ، ويجب على المؤرخ المصرى أن يفطن الى هذا ولا يجارى الأحاديث المشاعة التى لن تخلو من الهوى ولن ترتكز الى سند صحيح

على ان اليونان لم يكونوا بالمغرضين وحدهم فى تقرير تاريخ تلك الأيام لما هو معلوم من المنافسة بينهم وبين الوطنيين ، فان هنالك شعبا آخر كان يخامره الغرض فى تقرير ذلك

رعمسو الثانى يقاتل ومعه أسده الاليف تصوير افلن بول

التاريخ لأسباب تشبه تلك الاسباب . ذلك هو شعب اسرائيل

لقد كان الاسرائيليون ساخطين على مصر لأنها قهرتهم قديماً وسخرتهم فى بلادها تسخير العبيد ، فما زالوا ينطوون لها على ضغن ويتمنون لها الهزيمة والسقوط ، ثم نشبت الحرب بين البابليين وبنى اسرائيل ففزع هؤلاء الى فرعون وأبطأ فرعون فى اسعافهم فهزمهم البابليون وحملوهم مأسورين الى أرض بابل ، فصب كهان اسرائيل غضبهم على مصر وأنذروها بمثل هذا المصير ، وجاء كورش مؤسس الدولة الفارسية فقهر البابليين وسمح لبعض أسباط بنى اسرائيل بالقفول الى أرضهم فحفظوا له هذا الجميل وكان سبباً جديداً لميلهم مع الفرس وتمنيهم الهزيمة لعدوتهم مصر ، فالاحاديث التى تحدرت الينا من ناحية بنى اسرائيل عن فترة الغزوة الفارسية كانت من ثم عرضة للمبالغة والتشويه وسوء الشهادة للمصريين ، إذ كان فى ذلك إرضاء للثأر القديم وتصديق للنبوءات المأثورة ، وهذه حقيقة لا يصح نسيانها فى تمحيص أخبار تلك الفترة المثقلة بذكريات العصبية والدين

ثم جاءوا الأربيون المتأخرون فوافقهم أن يسجلوا الضعف

والجبن على الشرق ويؤثروا اسلافهم فى اوربا بمناقب الشجاعة والاقدام والتغلب والسيادة ، ووجدوا فى ذلك ذريعة الى تسويغ الاستعمار وتوهين عزائم الأمم المغلوبة واقناعها بما قسم لها من مصير الذلة والخضوع ، فقرروه وابدأوا وأعادوا فيه وحاولوا أن يبثوه فى قلوب الناشئة الشرقية لتنمو وتكبر وهى على هذه العقيدة المميتة ، ثم زادوا فقرروا ان مصر لم تستقل قط بعد الغزوة الفارسية ولم يحكمها احد من ابنائها فهى بعد اليوم لن تستقل ولن يحكمها احد من أولئك الابناء ! ! ولو قالوا مثل ذلك عن انجلترا أو فرنسا أو المانيا أو اية دولة اخرى لأصابوا من حيث لم يصيبوا فى كلامهم عن هذه البلاد ، فكل هذه الدول لم تعرف لها اسرة مالكة من صميم اهلها منذ زمن طويل ، ومزية مصر انها كانت تحكم لحساب اهلها وتصبغ حكامها بصبغتها فى الدين والشعائر والالقاب . حتى « قمبيز » انتحل فيها اسما من اسماء الفراعنة واتخذ له اسرة معدودة من اسراتهم المتعاقبة ، وحتى الرومان الطغاة سادة الارض قد دانوا بالمسيحية يوم نشب النزاع بين مصر وبينهم فكانوا

هم فى جانب الديانة القديمة وكانت مصر فى جانب الدين الجديد

فمصر والدول الاوربية سواء فى قيام حكام فيهن جميعاً من غير ابناء البلاد . وقد تكون مصر خيرا منهن جميعاً لانها لم تحسب قط سلعة « خاصة » كما حسبت أمم اوروبية كثيرة فى صفقات الزواج والميراث

ولو غير شوقى تعرض لفترة الغزوة الفارسية لكان له فى هذه الحقائق مجال أىّ مجال لانصاف الوطنية المصرية واستخراج الجوهرة الصافية من خلال ذلك الركام المهيل ، ولكنها فترة منكودة الحظ فمن نكد حظها انها وقعت فى يد هذا المؤلف الذى لاخطر عنده للوطنية ولا للتاريخ ولا للخيال !

* * *

على ان الذى يضحكك ملء شدقيك من شوقى أن تراه يتعالم بالروايات التاريخية ويخوض بينها بالترجيح والتعليل كأنه يميزها عن دراسة ومعرفة وعناية نزيهة ، وهو علم الله ما ألم منها بكثير ولا قليل إلا خطف المتعجل الجاهل الذى لا يصبر على دراسة

فلما سأله مندوب « الصباح » الاسبوعية أصحيح ان نقيتاس كانت زوج كورش أبى قمبيز ولم تكن زوجة قمبيز ؟ لم يتحرج شوقى أن يخبطها خبط عشواء ويلقى هذا الجواب الذى ننقله بنصه لانه أضحوكة الاضاحيك

قال وقاه الله شر التاريخ ووقى التاريخ شره :

« الذى قال ذلك هو الدكتور ايبر . . . وقد كتبها متأثراً بالحضارة اليونانية شأنه فى ذلك شأن كل المؤرخين الافرنج الذين يتكأون فيما يؤرخون على الحضارة اليونانية غيرعابئين مطلقا بالحضارة المصرية فى ذلك العهد . وأنا المصرى ما كان لى أن اسلك الطريق الذى سلكوه فى الكتابة عن هذه الحقبة من الزمن ، وانما كان على ان اعتمد على الحضارة المصرية وأن أسمو بالناحية الوطنية بما يجعلها فى مستوى أرفع من النواحى الاخرى ،ولقد فعلت ! ! »

والله صحيح ! .. لقد فعلتها جزاك الله بمافعلت ياشيخ ! ومن غيرك يستطيع أن يخبطها هذه الخبطة التى تربى أكاذيبها على الكلمات فيها والحروف ؟ من غيرك يستطيع أن يزعم

فى عبثه وتخليطه أن ايبر هو صاحب تلك الاحدوثه وانها اغريقية تجحف بالمصريين ؟ تقولها أنت لانك آليت لتمثلن بالتاريخ شر تمثيل . . أما التاريخ فله كلام غير هذا الكلام بل نقيض هذا الكلام

فلا أيبر هو صاحب تلك الاحدوثة التى رجحت ان « نتيتا » خطبت لكورش ولم تخطب لقمبيز ، ولا هذه الاحدوثة أغريقية تجحف بسمعه المصريين

أما ايبريا هذا فتلك قصته « الاميرة المصرية » مترجمة الى العربية والانجليزية والفرنسية وكلها دائرة على الاحدوثة الاخرى التى تقول أن « نتيتا » خطبت لقمبيز لا لكورش أبيه

وأما الاحدوثة التى زعمتها اغريقية فما هى الا دعاية مصرية صميمة روجها المصريون لارضاء كبريائهم وتعزيز ثقتهم بأنفسهم ونفض ذلة الاسر عن كواهلهم ، فقالوا أن قمبيز لم يكن فارسياً ملك مصر ولكنه كان مصريا ملك فارس !! وانه لم يطالب بعرش مصر الا لأنه كان ابن الاميرة المصرية نتيتا التى خطبها أبوه كورش ، فهو أحق بالعرش

من أحمس غاصب الملك ومنافس الفرعون « وهاب رع » ! !
وعلى هذا تكون يا صاح قد عكست الامر فرفضت الدعاية الوطنية وتشبثت بالاحدوثة الأجنبية ! !

ثم أنت تؤاخذ « ايبر » ولا مؤاخذة على الرجل فى شىء من هذا ، وإنما أشار الى الأحدوثة ـ من المتأخرين المعروفين عندنا ـ ثلاثة هم ماسبرو مؤرخ « الأمم الشرقية » وجستاف جكفيه صاحب كتاب الحضارة المصرية : وبتري الأثري الكبير ، والأول والثالث قد ذكرا سبب دعاية المصريين بهذه الأحدوثة والثانى ذكرها وحدها ولم يذكر الأحدوثة الأخرى ولا أشار اليها ، وامثال هذه الاحاديث على كل حال من الاساطير وليست من التاريخ . ولكنها قد تستحب فى فكاهات القصص والتمثيل

ويطول بنا المقال — يطول بنا جداً لو أحصينا الغلط المبثوث هنا وهناك أثناء الرواية فى الأسماء وترتيب الحوادث ووصف العادات ، ولكن من يلوم المؤلف على مثل هذا الغلط لكمن يلوم الكافر على ترك الحج والصيام ، فبعد الكبائر لا ملام على الصغائر ! ! وحسبنا ما تقدم دليلا سيئاً على مافى هذه القمبيزية من خلط ذريع ! !

الخيال

لخيال الشاعر عمل جليل فى الروايات التاريخية ، لان حوادث هذه الروايات أشبه شىء بالهيكل العظمى الذى يحتاج الى الخيال الخالق المبتكر ليكسوه لحما و يجرى فيه دما ويبعث فى أوصاله روح حياة . فاذا بحثت فى رواية قميز عن أثر لمثل هذا الخيال فما أنت بواجده ولا مستطيع أن تفترض وجوده ، ولن ترى هنالك الا جسما حيا جرده شوقى من لحمه ودمه فآض فى يديه هيكلا عظميا لاحراك به الا كحراك الآلات الصماء

ذلك ان فترة الغزو الفارسى كانت من أعمر الفترات فى تاريخ مصر بالحوادث الشائقة والمواقف الروائية والعبر الناطقة ، فهى تملأ وطاب الشـــاعر لو كان على حظ من بديهة الخيال وقدرة التصوير والابتكار ، وتتزاحم فيها الشخصيات المسرحية فينعم فيها الشاعر بزاد طيب يمتع به النظارة والقراء

فما الذى صنعه شوقى بتلك الفترة ؟ لقد كان مطلوبا منه أن يكسوها لحما إن وجدها عارية ، فعراها هو من اللحم وألقاها عظمة بالية . ! . وكان هو بمثابة «قمبيز» آخر أغار عليها بخياله المنكوس فأعمل فيها معول التخريب والتجريد ونشر ريح الموت فى كل ماالمسه ورآه

فمن شخصيات تلك الفترة الواضحة فى تاريخ العالم كله شخصية صولون الحكيم المشهور والمشترع الكبير : زار مصر على عهد أحمس ودرس حكمتها واقتبس من شريعتها ولا سيما قانون «التشرد» والصناعات . فما كان أحوج المسرح الى ظهور هذه الشخصية!! وما أقدر المؤلف ـ لو كان شاعراً حقاً ـ أن يجمع فى دور صولون كلمات العظة والحكمة ويجرى على لسانه خلاصة التشريع فى العصر القديم ويبث فى منطقه اعترافه بما استفاده اليونان من مصر فى الدين والنسك والعلم والاخلاق!! أوما كان أجدر هذه الحقيقة أن تذكر فى رواية يقال انها وضعت لاعلاء قدر الوطنية المصرية واظهار فضلها على اليونان وعلى العالمين !

* * *

ومن شخصيات تلك الفترة قارون ملك الليديين صديق الفلاسفة ، مضرب الامثال بالغنى ولا سيما فى الآداب العربية . خلعه الفرس وأسروه واوشكوا ان يحرقوه ثم اطلقوه فاخلد الى الزهد وقنع بحظه ووجد السعادة فى القناعة بعد أن عز عليه طلابها بالمال والسلطان . ثم زار مصر مع الفرس وتابع مصارع الامم وشهد الدول كيف تدول وعرف السطوة فى نفسه وفى غيره كيف تحول وتزول ، أفتوجد هذه الشخصية بين يدى شاعر يؤلف الروايات التمثيلية عن عصره فيرمى بها وراء الستار ولا يبرزها مرة لتسمع الدنيا من فمها عبرة صاحب الكنوز ومضرب الامثال فى جميع العصور ؟ ألم تكن لقارون كلمة منتظرة فى زمن ران فيه حب المال على كثير من النفوس وقال شوقى عن نعيمه انه « قتل حمية الفتيان » ؟

بلى ؟ قد كانت له كلمة بل كلمات ، ولكن أين شوقى وعبر التاريخ وأين شوقى والهام الخيال ؟ !

* * *

ومن حوادث ذلك العصر الرائعة غزوة الفرس للصحراء اللوبية التى تبدد فيها خمسون الف انسان . ثم غزوتهم للنوبة التى هلك فيها الجيش الفارسى جوعا وعطشا واتفقوا آخر الامر ان يقترعوا على واحد من كل عشرة يأكلونه بعد أن أكلوا العشب ثم فقدوا العشب فى سهوب الصحراء . . . أى تمهيد لجنون قمبيز أفجع من هذا التمهيد وأحرى أن يقنع الناس باحتمال هذا الجنون ؟ ثم كيف يستغنى الشاعر عن شرح هذه الضربة من ضربات القضاء وهو فى رواية فاجعة لاغنى فيها عن شرح غضب القضاء وغلبة الارباب ؟ لقد كان فى التاريخ تمهيدان واجبان لجنون قمبيز أحدهما هذه الكارثة والآخر ادمانه السكر وتماديه فى الشهوات ، فاما ادمانه السكر فقد خبط فيه شوقى احدى خبطاته العشواء فعصم قمبيز من الخمر لاشتغاله بالغزو عنها كما قال ! ! واما كارثه النوبة فقد رمى بها شوقى الى ماوراء الستار ورمى معها بكارثة الصحراء اللوبية على طول الذراع . . . ، وقد يقال انه خشى الاطالة

فنقول ان الرواية لم تزد على فصول ثلاثة فما ضره لو صارت أربعة أو خمسة ؟ وإن كان لابد من ثلاثة فصول لا أكثر فهل كانت تضيق هذه الفصول الثلاثة باثنين من الفرس أو المصريين يتحاوران ويحكيان ما انتاب قمبيز بعد غزوة النوبة وغزوة الصحراء ؟ أليس هذا خليقا أن يفسر لنا هجومه على «هابى» ثم جنونه ثم مطاردة الآلهة المصرية أياه من البدء الى الختام ؟

وعلى ذكر النوبة نعجب كيف تخطى المؤلف ذلك الحوار الشائق الذى داربين بعثة فارس وملك النوبة ؟ وكيف اكتفى من هذه الغزوة كلها بعرض الاسرى النوبيين على المسرح والعفو عنهم على أثر ذلك ! ! فان حديث ملك النوبة مع بعثة فارس لحديث مسرحى لا يذهل عنه كاتب رواية تمثيلية ولا يعذر فى تركه الا أن يكون جاهلا به أو ساهياً عنه ، وهو جهل فاضح وسهو معيب لا يليقان بمن يتصدى للكتابة فى تاريخ عصر الرواية وأهل زمانها

وخلاصة الخبر أن البعثة الفارسية حملت إلى ملك النوبة فيما حملت اليه من الهدايا ثيابا مصبغة ، فقال لهم قبل أن ينظر فى

هداياهم : ما جئتم أصدقاء لنا وانما جئتم عيونا علينا . . ! ثم سألهم عن الثياب كيف يصنعونها فوصفوا له نسجها وصبغها فابتسم وقال : ثياب غشاشة من أمة غشاشين ! ! ثم تناول قوساً كبـــيرة وأغرق فى نزعها وناولهم اياها وهو يقول : اذا استطعتم ان تنزعوا فى أقواس كهذه فأقدموا على قتالنا

وعادت البعثة فقيل أن قمبيز عجز عن علاج تلك القوس وأن بردية أخاه رمى منها السهم إلى أبعد مرماه فكان ذلك سبب حنقه عليه وقتله اياه ، فالمنظر كله من أمتع المناظر على المسرح وعرضه على النظارة لم يكن من الصعوبة فى شىء . فاعجب كيف أغفله شوقى ثم اعجب له كيف أنطق قمبيز بالعفو عن أسرى الغزوة النوبية وهى علة خيبته وجنونه ، وقل معنا بعد ذلك ياله من توفيق عجيب فى الغفلة والتشويه ! !

ومما يحفظ من سيرة قمبيز انه سلخ جلد أحد القضاة الفرس وهو فى قيد الحياة لخيانته امانة القضاء ، وهذا قبل ان يطبق عليه الجنون وتشتد عليه وطأة المرض ... فكان قصاصه هذا عدلا أقبح من الظلم وبادرة من الهوس الجامح تدل على مابعدها

ويحفظ له ايضا انه استوزر مصريا من اقرباء احمس و بسامتيك الثالث كان اميرا للاسطول فى عهدهما وكان اسمه « ازاهور رسنيت » وهذا الامير هو صاحب التمثال الذى عرف الأثريون منه بعض سيرة قمبيز فى مصر و بعض عنايته بها كل الارباب المقدسة بارشاد من « ازاهور رسنيت » صاحب التمثال ، وقد استمال قمبيز فاتخذ اسم « مسوت رع » ليتقرب الى المصريين و ينتظم عندهم فى عداد الفراعنة ، والتمثال المذكور هو الوثيقة الوحدة التى بقيت من عصر الغزوة الفارسية وتضمنت عن سيرة قمبيز شيئا من التفصيل ، فى الرواية موضع لكل عمل من هذه الاعمال يدل على شخصية « البطل » وتاريخ الفترة لو تنبه اليه المؤلف وكلف نفسه قليلا من البحث والمراجعة ، ولم يلق كل باله الى اساليب الدعاية الخفية التى شب عليها وشاب

أما أحمس فهو أظرف شخصية فى عصر الرواية وجناية شوقى عليه أكبر الجنايات ، فالتاريخ يحفظ له أساطير لطيفة وملحا جميلة هى من أخص صفات المصرى فى جميع الازمان ، فقد كان أحمس فى معظم صفاته مثل المصرى الشجاع العصامى

أحمس

obeikandl.com

الا ريب المفراح ، وكان مذهبه ، ان النكتة لا تعذر ، كمذهب جميع المصريين فى القديم والحديث . فكان لا يعفى نفسه ولا وزراءه ولا أهل بيته من النكتة اذا بدرت الى لسانه ، وقد لامه بعض صحبه على طربه ومزاحه وأوصاه أن يأخذ بالتزمت والوقار فى سمته فقال له مامعناه : « ويحك اهبنى وتراً مشدودا أترى الوتر يشد فى كل حين» ؟ واجترأ عليه بعض زملائه لما عرفوه من ماضيه وما أنسوه من حاضره فدعاهم يوما الى مأدبة وجعلهم يغسلون أرجلهم فى طست من الذهب ، ثم دعاهم بعدها الى مجلس أقام فى صدره تمثال اله ، فركعوا له حين وقعت أعينهم عليه ، فلما نهضوا قال لهم : أرأيتم هذا التمثال ؟ انه الطست الذى غسلتم فيه أرجلكم بالامس : صيغ اليوم الها فوجب له الخشوع والركوع !!

وكان حليفه ، بوليكرات ، ملك ساموس سعيدا فى مساعيه ظافرا بما آربه لا يهم بشىء الا تم على ما يروم ، فرووا أن أحمس كتب اليه يحذره مغبة هذه السعادة ويشفق عليه من حسد الارباب ويوصيه أن يحرم نفسه بيديه من أعز شىء لديه قبل

أن تجرعه الارباب بيديها مرارة الحرمان ، ورووا أن بوليكرات استمع لنصحه فقذف الى اليم بخاتم نفيس فى أصبعه كان يغالى بقدره ويضن به على الضياع ، فما هى الأيام حتى عاد اليه الخاتم فى جوف حوت !! فلما الخبر الى أحمس فتشاءم من صداقة بوليكرات وعلم أنه لامحالة منكوب وأن الدنيا لاتؤاتيه بهذه السعادة الا وهى تضمر له اجمع العواقب ، وقيل انه اشفق أن يلحق به طائف من عقابيل هذه السعادة فجر أشفاقه هذا الى انفصام العلاقة بين الملكين وتحوّل بوليكرات الى جانب قمبيز

هذا طرف من اقاصيص أحمس وهذه مسحة من شخصيته الظريفة ، فانظر ماذا صنع به شوقى جزاه الله؟ صنع بذكراه مثل ماصنع قمبيز بجثته .... فراح مظلوما بين خيال قمبيز القديم وخيال قمبيز الجديد !! وجزم صاحبنا بقتله ولوهاب رع ، ثم قال شارح الرواية فى ختامها « انه نادى بنفسه ملكا على مصر فى أثناء ثورة عسكرية فى ليبيا وعاد بعد ذلك الى مقر الملك فانزل ابرياس (اى وهاب رع) عن عرشه وقتله ثم استوى على عرش مصر !! »

أرأيت ؟ هكذا قال تاريخ شوقى وتاريخ شارحه اللبيب

أما تاريخ الناس فيقول ان أحمس اشرك وهاب رع فى الملك بعد أن هزمه فى وقعة موعفيس « لعلها منوف » . ثم بقيا معا يسوسان مصر ثلاث سنوات ، واقترن اسماهما معاً فى بعض الآثار ومنها هيكل « تاحوتمى الثالث » فى العرابة المدفونة ومقبرة فى « صا » ومعبد فى منف وختم نُقش اسماهما عليه مقترنين

ونص اللوح الذى فيه نعى وهاب رع على أنه خرج من القصر « بصا » فى شهر بؤنة من العام الثالث لحكمه مع احمس ، ثم ذهب الى حيث جمع الاغريق وتصدى بهم لحرب صاحبه فهزمه هذا ، ثم كانت الوقعه الفاصلة فى الثامن من هاتور ، فلما أحس الاغريق بالهزيمة وتغرير فرعون « وهاب رع » بهم قتلوه وأخذه أحمس فدفنه فى مقبرة آبائه .

أما « هيرودوت » فقد روى ان المصريين هم الذين طلبوه من أحمس حين عفا هذا عنه وأبقاه ، — وذكر أنهم تذمروا لمسامحته إياه بعد ماخانهم مراراً وجشمهم كل ذلك العناء فأخذوه وشنقوه وعاد أحمس فدفن جثته فى مقبرة آبائه برعاية واكرام

فعلى الروايتين لم يكن أحمس قاتل « وهاب رع » بعد الوقعة الأولى ولا بعد الوقعة الأخيرة ، فمن أين جاء شوقى وشارحه بذلك التخليط ؟ ألم يكن تصحيح الوقائع أنقى لتاريخ مصر وأدنى الى تصور الموقف الذى صمدت له « نتيتا » فاقدمت فيه على التضحية وأبت أن تكاشف قمبيز بحقيقة نسبها؟

لقد كان ذلك أنقى وأدنى الى المعقول ، ولهذا على مانظن تجاوزه شوقى الى ما هو أزرى وأبعد من المعقول !! وهكذا انتظر الناس من الرجل ان يكسو عصر روايته وابطالها خيالا فجاء هو ستره الله فجردهم جميعاً من الخيال !!

هكذا كان خيال شوقى فيما يسعده فيه المؤرخون ، فللقارىء أن يتصور كيف تكون المواقف والشخوص التى يعول فى وصفها على خياله وحسبه أو على ابتكاره الذى لا معول فيه على مصادر التاريخ

ونظن أن القارىء نفسه ليحتاج إلى خيال واسع لكى يتصور هذه المناقضة النادرة المثال : مناقضة شاعر يسمى أمير الشعراء ولا يكون عنده قسط من الخيال ولا نصيب من القدرة المبتكرة يعينه على وصف موقف

واحد أو شخص واحد وصفاً يخلو من الاحالة والشطط والصبيانية والتهافت .. ! فمن معجزات الخيال أن يتصور الانسان وجود شاعر كهذا فوق الارض وتحت السماء . وما كان من سبيل الى هذا التصور لولا أن شوقيا موجود يرى بالعين ولا يطول فيه جهد الخيال

والى القارىء بعض تلك الاوصاف الخيالية التى أحال فيها شوقى جهد الاحالة ولم يقف فيها عند حد العجز عن تصوير الحقيقة بل تعدى ذلك الى مسخها والاتيان بضدها موفقا فى سخفه أى توفيق مطردا فى عوجه أغرب اطراد . فلو أنه ألهم الصواب كما ألهم الخطأ لكان شاعر الارض غير مدافع ونبىّ الوصف الصادق بلا نكران

جاء وفد قمبيز الى مصر يخطب ابنة فرعون فقال أحدهم بعد ان جاس خلال البلد :

خطبنا اليهم أمس بنت مليكهم فما كان الا الاحتقار جواب
وأشفق أهلوها وقالوا حمامة دعاها الى الوكر السحيق عقاب

فلم يعترض عليه أحد من صحبه وسلموا جميعا ان احتقار

خطبة قميز أمر لايستغرب ولا يكبر على المصريين ، واشاعة ذائعة يعرفها من راح أوغدا فى الطريق

وبينماهم فى الحديث إذ يقول أحدهم

اعلمتم ماذا يردد فى القصر وماذا يقال همسا ووحيا ؟

فاذا سألوه واحاطوا به ليسمعوه تبين ان هذا السر لايخرج عن الكلام الذى افضى اليهم به زميلهم الاول قبل لحظة فما راجعوه ولا استغربوه ، ولكنهم هنا يثورون بالقائل ويسخرون منه ويصخبون فى الامر صخب الذين فوجئوا بكبيرة الكبائر بل « باكذوبة الاجيال » ... وهذا بعض مادار بينهم من صخب على أثر سماعه

الثانى — هازل انت ؟

الاول — بل سمعت حديثا ان يكن مفترى فماذا عليا

آخر — انه يهذى دعوه كاذب لاتسمعوه

ما الذى زخرف ؟

الثالث — القى كذبة الاجيال فوه

يزعم الملكة نفر يت ابنة الملك أمازس

ترفض السير مع الو فد الى اقطار فارس

آخر : ما خطبه مايدعى امض بنا لا نسمع
آخر : يقول فرعون مصر لم يرض قمبيز صهرا
الثانى : من امازيس . ما الامير
ة مامصر أفى الأرض من بقمبيز يهزا

اهذا خبر يروى غبى أنت والله
أتحت القبة الزر قاء من يسخر بالشاه؟

فهذان موقفان متناقضان جد التناقض فى خبر واحد لا يستغرق إلقاؤه على المسرح من بدايته إلى نهايته أكثر من خمس دقائق ، وليس بعد هذا عجز فى استقامة التصور وصدق التصوير

ثم الوفد ما صفته وما حاله ؟ أضعف الناس ادراكا يستطيع أن يدرك أن وفد الخطبة لا يكون إلا من نخبة الحاشية وآل بيت الملك ومن ضارعهم بين أقطاب الدولة ، فهم أرفع من أن يذهلهم الطعام عن عقولهم وتستخف الموائد أحلامهم وتطير بوقارهم . وهم أشجع من أن تفزعهم رؤى الأطفال وتطغى على منامهم وساوس الصغار . فأما فى الشجاعة فقد جعلهم شوقى جميعاً يرقدون فما يقدرون على

النوم من الفزع لرؤية التماسيح والثيران ، وأما فى خسة النفس على الطعام فهذا منظر يطلع فيه هؤلاء الوجوه الذين يقول فرعون لأحدهم :

أنت لاتجهل من أنظمة الد يوان شيا

فاذا هم يفتنون بألوان الطعام المألوفة فتنة السوقة الجياع قد أنساهم الجوع التجمل وأذهلهم عن التصون ، فيصيح بعضهم :

فيروز انظر ترى الخرافا حمرا لطافا على الخوان
ذا سمك النيل فى الأوانى كأنه معصم الغوانى
وأعين تلك فى جفون أم ذلك البط فى الجفان

ويتصايحون واحداً أثر الآخر بمثل هذا الفضول الذى لا يصدر من ذى مروءة فى داره وبين عشيرته فضلا عن دار الغربة وموقف الخطبة . وان اضطراب الخيال والعجز فى التصور ليبدو على أتمه حين تقرأ فى الفصل الثالث وصف مايقدم على مائدة قمبيز وما يراه الحاشية هنالك من ألوان الطعام فاذا هو أفخر من الخراف وسمك النيل والبط : واليكه كما جاء فى الرواية :

الوصيفة : كان العشاء ملكتى مائدة محملة

أكلت يا سيدتى من أرنب متبلة
ثم أكلت من حمل وحمل الفرس جمل

الملكة : ثم ؟

الوصيفة : جاءوا بالطير فى الاطباق

الملكة : طير من ؟

الوصيفة : طير فارس والعراق

الملكة : ثم ماذا

الوصيفة : ثم جاءوا بالسمك
فرأيت الملك فى الأكل انهمك

الملكة : ثم ماذا ؟

الوصيفة : لا أعد ما حضر من لحوم وبقول وخضر
ثم بالحلوى أتوا والفاكهة

الملكة : كيف كانت ؟

الوصيفة : تشتهيها الآلهة

فهذه أصناف الطعام فى قصر فارس لا تقل عن مثيلاتها فى قصر فرعون بل تفوقها . وهى من المطاعم التى تغرى

الاميرة المصرية بالأكل كما قالت :

وقد يغريك بالأكل طهاة الفرس والشام

فما الذى أذهل الحاشية الفارسية اذن كل ذلك الذهول لولا انها فهاهة وسخف وتهافت فى التصور والخيال ؟

ويلحق بهذا التهافت أن ترجع الى الحوار بين الملكة والوصيفة فترى أن الملكة هى السائلة عن أصناف الطعام والوصيفة هى المجيبة . . . . مع أن الملكة هى التى أكلت ولم تحضر معها الوصيفة ، بل كانت فى جانب الحجرة مختبئة . فما معنى هذا السؤال المعكوس لولا انها أيضاً فهاهة وسخف وتهافت فى التصور والخيال ؟

وأعجب من جميع هذا أن تسمع الوصيفة اسم بردية اخى الملك فتسأل : من بردية ؟ ؟ وقد كان ظننا أن شوقيا أقدر على تصور البلاط من هذا لأنه بيئة عاش فيها ورآها ولا حاجة به الى اجهاد الخيال فى تصورها . فان الحاشية مطبوعة على استطلاع الاسرار والنساء خاصة اشد استطلاعا لها وتنقيبا عنها فى جحورها ، فلا تعرف إحالة فى التخيل أغرب

من وصيفة فى القصر لم تسمع باسم أخى الملك الذى كان زينة شباب عصره جمالا وفروسية وبأسا وكان شقيق قمبيز واقرب الاقربين اليه . . . . انها أحالة شوقية ولا زيادة . . ! !

وقد شاء شوقى أن يجعل سفر « نتيتا » ضرورة ألجأ اليها اتقاء الغارة الفارسية . ولكنه مع هذا شاء الا يجعلها ضرورة على الاطلاق ! ! فقرر أن غارة فارس كانت أمرا مقدورا لا مفر منه سواء أقبل أحمس تزويج بنته من قمبيز أم لم يقبل ، عرف ذلك الوفد الفارسى فقال أحد رجاله قبل ان تبرح الاميرة المخطوبة أرض مصر

يهب عليها غداً عاصف من الفرس انى تمشى حصد

وقال آخر : غداً يصب عليهم قمبيز سوط عـــذابه

وقال آخر

صدقت أخا الفرس قلت الصوا ب غداً يعصف الفرس أو بعد غد

وقالت « نتيتاس » نفسها قبل ان تبرح قصرها

غداً تذرو رياح الفر س من موتاك ما تذرو

غداً يصبغ من شـــط اشط بالدم النهـــر

غـــدا يهتك عن أربا بك المحراب والستر

و « نتيتاس » هذه هى التى أيقنت قبل ذاك انها حسمت الشر ودفعت الخطر فقالت ترد على نفريت :

نفريت ـــ أتيتنى شامتة

نتيتاس ـــ لابل أتيت مسعدة

آمون قدمد اليـ ـك والى الوادى يده

وقدكفى مصر البلا ء والخطوب المرعدة

وكف عن ربوعنا نار المجوس الموقدة

فهل الفدية ضرورة لازبة أو غير ضرورة لازبة ؟ لا بد من احدى الاثنتين : أما الاثنتان معاً فلا . . !

* * *

ولما جاءت نتيتاس تلقى أحمس لتبلغه عزمها على السفر الى بلاد الفرس مكان ابنته الآبية شاء شوقى ان يجعل الحديث بينهما سراً تخرج نفريت ـــ ابنة أحمس ـــ من الحجرة لكى لاتسمعه . . . على ان هذا السر قد عرفته نفريت قبيل ذلك من نتيتاس نفسها حين قالت لها

أتيت لمصلحة الآخـــرين وجئت لشأن جليل العظم
أتيت لأفدى بنفسى البلاد وأدفع عن مصر شر العجم
فانك ان ترفضى يزحفوا كزحف الذئاب ، ونحن الغنم

وشبيه بهذا أن يطلع قمبيز على سر هذا التبديل فيغضب ويجعله سببا لغزوه مصر وإنذار زوجه المصرية بتخريب وطنها...! وانه لفى الحجرة لم يفارقها اذجاءه نبأ الرسل والجواسيس الذين بعثهم الى مصر يستطلعون الطريق ويحكمون تدبير الغارة قبل ان يسمع بخبر التبديل بين العروسين وقبل ان يغضب تلك الغضبة « البريئة » !! فهلا كان هنا بعض التصرف للتوفيق بين الامرين ؟ !

وان قمبيز مرة لوحش يصف نفسه فيقول « أنا وحش أنا غول » وتصفه امرأته فتقول انه « نمر الفرس الخشن » وانه لمرة أخرى وفى سياق الحديث نفسه

لاهو بالملـــك البربرى ولا الوحش ذى الناب والمخلب

ثم تكون زوجه هى التى تقول للوصيفة التى نفت عنه الوحشية :

صدقت « تتا » هو زين الشباب
أله القنا قمـــر الغيهب

فهلا اتقى شوقى هذا التناقض أو تنبه اليه ؟

* * *

ونحسن الظن بشوقى قليلا فنحاسبه على الاحالات التى لا يحاسب عليها مثله ولا يسأل عنها إلا من هم أدق منه بديهة وأكيس منه خيالا . وإن لم يكن التنبه اليها بالشىء الكثير

فقد قال بلسان فانيس يخاطب الأميرة نتيتاس ليقنعها بقبول غزوة قمبيز لبلادها مصر :

دعيه يعاقب سارق التاج مثلما يعاقب فى منفيس لص لآل

واللآلىء لم تكن مما يسرق فى منفيس ! ! لأنها لم تعرف فى مصر قبل عهد البطالسة (راجع كتاب المواد المصرية القديمة للأستاذ لوكاس) ولو أنها كانت معهودة شائعة فى منفيس على أيام أحمس لما جاز أن تخص بالذكر فى هذا المقام . وإلا فهل لص الذهب أو الملابس أو الآنية مثلا لا يعاقب فى منفيس ؟ وهل لابد أن يسرق اللآلىء حتى يعاقب ويرذل

ويزدرى ؟ فالقافية هى التى جنت على شـــوقى فأوقعته فى الاحالة التاريخية والغثاثة المعنوية . ولو أنه قال :

دعيه يعاقب سارق التاج مثلما يعاقب فى منفيس سارق مال

لأصاب ولم يسف فى لفظه ، لأن كلمة المال تشمل كل ما يملك ويسرق . ولأن مقابلة السارق فى الشـــطر الأول بالسارق فى الشطر الثانى أجمل من ذلك التعسف الذميم الذى يلام عليه حتى المبتدىء من النظامين

وقال بلسان فرعون الأسير :

ان الجواهر فى التراب جواهر والأسد فى قفص الحديد أسود

ظن شوقى ان أقفاص حديقة الحيوان فى الجيزة كانت مالوفة على هذا النمط منذ القدم ! فضرب ذلك المثل العقيم ولم يخطر له أنها فى مصر شىء حديث متأخر ، ولا استطاع أن يتخيل لحبس الاسود حالا غير هذه الحال التى يراها بعينيه . وانما كانت الاسود تحبس فى جب أو غار ، وكانت مع هذا تعبد حين تحبس فلا هوان اذن فى الحبس ولا نقصان ، ومتى انتفى الهوان فالمثل الذى ضربه شوقى لغو عقيم

* * *

وكلم فرعون رئيس وفد فارس فقال له

سيـــدى لو تقول لى كيف قمبيز والقدح

ومن هو المتكلم ؟ هو فرعون الذى تأفف قبيل ذلك من افراط نتيتاس فى مجاملة الفرس ، ومازادت على الترحيب والاعتذار

فمتى كان فرعون هذا يخاطب خادم ملك آخر بقوله « ياسيدى » فى عهد التأليه والتقديس ؟ ذلك خطاب يجوز سماعه الان ولا يقاس عليه ، اما فى ابان الالهية الفرعونية فما كان ليسمع وما هو بالخطاب الذى يخطر على بال مستقيم

* * *

على ان اضحوكة الاضاحيك حقا حديث حاشية قمبيز فى الموقف الذى مات فيه قمبيز ، ففى ذلك الموقف بخع الملك نفسه بعد أن جن وثار جنونه وقتل صحبه وبطانته وترك من حوله يتساءلون متى يحين اجلهم يا ترى فى هذه المقتلة الجزاف ؟ فانظر كيف كان رجال الحاشية يتكلمون فى ذلك الموقف المرهوب قبيل انتحار مليكهم وهو بينهم هائج الضمير يذكر

اثامه ويتخبط من الصرع والندامة

رستم لحيدر : وأين منزل الضمير ؟

حيدر : موضع من الجسد

أنظر هنا يارستم الـ قلب وهاهنا الكبد

وهاهنا الضمير بين الـ قلب والكبد قعد

رستم : هنا الدجاج والحمـــا م هاهنا بلا عدد

حيدر : والبط أيضا والاو ز والحمار والوتد

وكل ماتسرق أو تخط ف من هذا البلد

فهو بيمارستان ولا شك ! ! على رأسه ملك مجنون يهذى ومن حوله رهط مجانين يهذون ! ! والبركة فى خيال شوقى السقيم الذى يحن كل من مسه من العقلا.

وقد يحسن ان نختم النقد بهذا الموقف الذى ختمت به الرواية . فلعل الذين يترنمون بشعر شوقى من غوغاء الادب يعلمون الآن ماذا ينقصه من أداة الشاعر المتخيل المبتكر فيعلمون منزلة الشعر الرفيع ويفقهون انه مركب ليس بالسهل وصناعة لاتغنى فيها الطلاوة والنعومه فى الصياغة ، فهذه قدرة تكسب

بالمرانة الطويلة ولا تعدو طبقة الملكات الآلية والصناعات اللفظية . أما الشعر الرفيع فهو الخلق والابتكار والقدرة على تصور الحياة فى صورتها السليمة الكاملة بلا علاج ولا تشويه . فالخيال الذى لا يرى أو لا يرى الامور الا على عكس ما ينبغى أن تكون عليه آفة وعيب وليس بقدرة ورجحان

وقد ابى شوقى الا ان يفرغ جميع نقائصه فى رواية قمبيز التى لم نشهد له رواية قبلها على مسرح التمثيل . ففيها كل عيوب ذهنه وكل عيوب خلقه

ودعنا من عيوبه التى تعنيه فلا شأن لنا بها فى هذا المقام . وانما نعتبر بما نراه فى الرواية من تقلب هذا الانسان بين الناس وتمليقه للنقيض والنقيض . فاما الشعب فهو يتملقه بما لا يضير ذوى النفوذ من دعاء وصخب . واما ذوو النفوذ فهو يتملقهم بما يسرهم ويرضيهم حين يسمعون مثل قوله : « مولاى ان الوفد فى ارتياع ... » أو مثل قوله وهو يتكلم عن وفد فارس .. :

فمن من الوفد برأسه الىّ يدفع

ثم يقول : حوتيب ما من احد هان عليه رأسه

انظر اليهم كلهم عزت عليه نفسه

الى غير ذلك من التعريضات التى يقابل بها صاحبنا كل وجه ويدور بها فى كل مدار وينوح بها فى كل مأتم ويرقص بها فى كل عرس .. وهكذا تحار الدنيا كيف ترفع شوقيا بما يرتفع به الرجال فيأبى هو الا ان يكون حيث كان ويقر حيث طاب له القرار

obeikandl.com

بسامتيك الثالث

obeikan.com

شوقي بين يدي تميز

رواية شعرية « غير تمثيلية »

تميز لكاهنه سابور :

سابور ! من ذاك القزم في جانب من الهرم
يظهر حينا ويروغ روغان المتهم

سابور الكاهن :

مولاي هذا شاعر في مصر يغتاب الأمم
يرجمها ويحتـــمي خلف الدهور في أجم (١)
أضعف من صاغ مديح ـــا في القصيد أو شتم
يرعى ذوي البأس ولا يرعى العهود والذمم
ما قال لا قطُ ولا يصدق إن قال نعم
وناطـــق اذا جرى حديثه على القـــلم

(١) - مأوى الاسد

oberikandi.com

لـــكنه فى صمته أبلهٌ أو فيه بـــكم
وربما شـــاهدته فى حيث جال أو جثم
خالس حينا نظرة عجلى ، وحينا اقتحم
تطير عيناه ولو لبّى هواه لهجم
قد عاند الاقدار لا يكون يوما ذا شمم
لو ارتقى العرش ارتقا ه وهو فى زى الخـــدم

قمبيز :

ياعجبـــاً لأمـــره ألا نراه من أمم (١)

الكاهن :

مولاى دعـــه ، انه يثلبنـا فيما نظم

قمبيز : وما يقول ويحه ؟

الكاهن : يقول . . . . بئس مازعم

يقـــول مولاى طغى يقول مولاى ظـلم
لا بل يقول كذبا ينقضه فيما رجم
كأنمـــا ينعت مســـ ـخا شاتها ذاك القـــزم

(١) من قرب

قمبيز .

ياويـــله جئنى به أشفيه من داء البكم
جئنى به إن جسدا حيا يُرى ، وان عدم
ألا تطيقهـــا ؟

الكاهن : بـــلى ! أطيقها ولا جـــرم

الكاهن مستمرا مزمزما :

ياأهرمان (١) هاته أخرجه من بين الظلم
يا أهرمان جـــره من رأسه أو القـــدم
ياأهرمان الوَحى (٢) لن تخلف الوعد ولم
ماأنت عنه عاجـــز كلا ! وان طال القدم

* * *

شوقى بين يدى قمبيز

قمبيز متهكما :

---

(١) اهرمان هو اله الشر والظلام فى ديانة زردشت نبى الفرس القديم (٠) الوحى بفتح الحاء أى السرعة وهى كلمة ينطق بها السحرة لاستعجال الشياطين

ها . . أنت جئت عندنا ؟! يامرحباً . . أهل الكرم !

شوقى :

لبيك مولاى . .

قمبيز : . . . . أجـــل لبيك أنت يا قزم

يامسخ ما غرك بى ؟ حسبتنى من الرمم ؟!

مسخ أنا تزعمنى ؟ انطق . تكلم ياصنم ! !

شوقى : أنا ؟ !

قمبيز : نعم ! ومن اذن ؟

شوقى : بل ذاك خصم قد نقم

أنا مدحت ســـيدى وقلت خير من حكم

وقلت خير من رمى وقلت خير من صدم

كم فى مدينـــة حمى وفى ميادين هزم

لا جور فيه ان أصـا ب أو أثاب أو حرم

دعنى اذهبْ وأجىءْ بما رقمت

قمبيز لاترم (١)

(١) رام المكان يريمه أى برحه

لتقضين ّ هاهنا

الـكاهن : على اللاظى! أوالوضم(١)
ألم تلفقْ قصـــة سميتها باسم « العلم »
فيـــها تقول ما تقو ل من هراء وتهم؟

شوقى :
حاشاى ! لم انظـم ولا كان لسـانى ان نظم
كلا ! وحق النـار والنو ر ، وحق ذا الحرم
لـكنه « العقاد » سواه ما . . ومثله اجترم
ألف « قمبيز » والقـ ـاها علىّ ، واعتصم
أحلف كل حلفة ! أقسم أحرج القسم !

قمبيز :
كيف ترى سابور فى هذا المحال والوَهم(٢)
أهازل صاحبنا ؟ أم مسه بعض اللمم (٣)

الـكاهن : مولاى تلك شيمة فيه

قمبيز : وبئست الشـــيم

(١) الوضم خشبة يكسر عليها العظم و يقطع اللحم
(٢) الوهم بفتح الهاء الغلط فى التقدير والحساب (٣) الجنون الخفيف

لنهلكنه اذن !

الكاهن أمرك فيه . لاسلم !

شوقى :

يارجل الدين أغثـ ني . لاطغت بك القسم
كن شافعاً ، كن حكما أنت الشفيع والحكم
ولا تزده غضبا حسبى من الخطب الندم
انا مدحت سيدى وما جحدته العظم
انا هدمت بيدى من مصر فوق ماهدم
انا سلبت أهلها خيم(١) الرجال والهمم
رميتهم بالجبن والو هن وبالجهل العمم
وبالفجور تارة وبالغرور والوخم
وقلت كل مارق يخون مصر لم يُلم
وقلت انتم الذئا ب وبنو مصر الغنم
فكيف لاترحمنى وأنت اولى من رحم
هذى ضلوعى كاللظى هذى دموعى كالديم(٢)

(١) الخيم بكسر الخاء الطبيعه اوالسجية (٢) جمع ديمة وهى المطر الدائم

الرأفة الرأفة بى من يربح الحمد اغتنم

الكاهن

حمدك انت مغنم ؟! طوبى اذن لمن يُذم

كفى

شوقى : . . . . اجرنى

الكاهن لامجير اليوم من موت حتم

قمبيز : لا بل تشفع للخبيـ ـث واتسم بماوسم

أضحكنا وقـــد بكى وسرنا وما ابتسم

فاختـــر له منـــية يحمدها اذا انصرم

شوقى :

منـــية ؟! ياويلتـــا ه . . ماعفا ، ولاعزم

خلتك تعفو سيدى والعفو أحلى وأتم

وما انتفاعى بالشفا عات اذا الموت دهم

قمبيز :

كيف ؟ اهكذا ترى جهل الحكيم بالحكم ؟

كم صور للموت أشـ ـهى من شهيات النعم

بين حامين كما بين شفاء وسقم
فاختر

شوقى : . . . . أنا اختار ؟

الكاهن : هل
تاذن لى ؟

قمبيز . نعم نعم
شأن الخبيث هين كله الى بعض الحشم
هم بمنايا مثله أولى ، وأدرى بالقيم
نلهو بما اختاروا ولا يمسنا منه وصم (١)

قمبيز :

هذا مليح . فادع يا حاجب ، منهم من رسم
الحشم يدخلون

قمبيز مستمرا :

ياحشم القصر انظروا اليه من حيث نجم
هذا سليطٌ يفتحى بالشعر شاهات العجم

(١) الوصم بفتح الصاد المرض (٢) رسم اليه حضر اليه مسرعا

فاقترحوا فيه المنا ياواسألوا فيه النقم
صفّـــوا له مـائدة لا يتخطاهـا الو حم
يُحرق ؟ ام يُغرق ؟ ام يُرمى به ؟ ام يُصطلم(١)

شوقى : ياحربا !

احد الحشم ياعجبا

ثان : ماذا جنى ؟

ثالث : كيف غشم (٢)

أحدهم :

نسلّ منـــه مقولا فاه به ، وما احترم
يخرس عن أمثـالهـا

الـكاهن : لا خرسٌ ولا صمم
لسـانه أشقى به وهو به أشقى النسم(٣)

ثان : النار !

شوقى : النار تغـــذ وهابجسم من هنات وهرم ؟

(١) اصطلمه قطعه من أصله (٢) غشم اى خبط فى الطريق بغير معرفة
(٣) جمع نسمة وهى النفس

ياسوء ماامترت لها من الطعـوم والطعم

الكاهن :

لاتحملن همها يكفيك همك الأهم !!

الثالث

نلقى به حيـا لعقـ بان الهواء والرخم

رابع

نسلخ جلد وجهـه نفرى (١) عن الجسم الأدم

الكاهن

ماللأديب يلـتوى ما للأريب قـد لطم

خامس

هـبه لوحش لقمةً سائغة من اللقم

شوقى

بل ترحم الوحش فما فىّ شفاء من قرم (٢)

سادس

(١) فرى قطع والادم الجلد

(٢) القرم شهوة اللحـم

ان شاء مولاى فى الخ ازوق تكفير الأثم

شوقى

وكيف بالخازوق فى غير عنـــاء وألم؟

* * *

الكاهن

أما كفاه سيدى ! مات ولما يخترم (١)
ماواقع النار وقد حال الى لون الحمم (٢)
وما علته ضربة وفيه قد دب الورم!

قمبيز

لا بل كفانا ضحكا منه ، وترفيه سأم
فانفض رقاك (٣) واعده وعدبنا الى الرجم (٤)

* * *

شوقى متنبها

ماهذه الأشباح ؟ ما هذى الرؤى ؟ ماذا ألم؟

(١) اخترمه الموت قضى عليه (٢) جمع حمة وهى كل ما احترق بالنار
(٣) الرقى جمع رقية وهى قوة السحر ووسيلته
(٤) الرجم القبر

عيني طال نومها ؟ أم هى يقظى لم تنم
التوبة التوبـــة ! لا عرضتْ حتى للرمم
الرهبة الرهـــبة انْ باح لســـانى أو كتم
حـــذار سحر فارس وسحر سائر الامم
أن السعيد حازم أبـداً حزماً وختم